(١) اقرب الطرق

« الى نشر اللغة الفصحى »

(١)

سألت (رياسة المعارف) مجمعنا العلمي عن اقرب الطرق الى نشر اللغة الفصحى بين الجمهور وظاهر قولها هذا يشمل مسألتين

(الاولى) نشر اللغة الفصحى بتحصيل ملكة الكتابة والانشاء الفصيح فيها .

(الثانية) نشرها بتحصيل ملكة النطق والمحاورة الفصيحة فيها . ولعل المسألة الثانية) هي ما تقصد اليه (رئاسة المعارف) في سؤالها ومع هذا ارى من المفيد الكلام على المسألتين معاً فأقول :

اما تحصيل ملكة الكتابة والانشاء باللغة الفصحى فطرائقه متيسرة سهلة الحصول وان الاقطار العربية التي سلكت هذه الطرائق نجحت وجنت منها ثمراً طيباً . وقام من ابنائها كتاب ومترسلون ومؤلفون لا يحصون . وهم وان تفاوتوا في درجات الاجادة — يكتبون لغة صحيحة . وعبارة فصيحة . خالية من العجمة المحتكة . والعامية المبتذلة

اما هذه الطرائق أو الوسائط الموصلة الى نشر الكتابة باللغة الفصحى فهي امور:

١ — العناية بتعليم قواعد النحو والصرف واللغة والانشاء في المكاتب الابتدائية بحيث يكون التعليم عمليًا يتوخى فيه تطبيق تلك القواعد وتمرين الناشئين على الكتابة الفصيحة وهذه الطريقة هي الاساس في تحصيل ملكة الكتابة .

٢ — نشر الكتب ذات العبارة الفصيحة بين جمهور القراء فيطالعونها المرة بعد المرة ويحفظون عن ظهر قلب ما يستحلونه من نظمها ونثرها . وبهذه الصورة تنطبع الكلمات والاساليب الفصحى في نفوسهم فيأخذون في تقليدها اذا كتبوا . ويسهل

«١» وهو تقرير قدمه الاستاذ « المغربي » الى رئاسة المجمع العلمي جواباً على سؤال رئاسة المعارف : عن اقرب الطرق لنشر اللغة الفصحى

عليهم فهمها وفهم ما كان على غرارها إذا قرأوا .

و (الكتب ذات العبارة الفصيحة) كثيرة : نذكر منها القرآن والحديث الشريفين ونهج البلاغة . مقدمة ابن خلدون ومصنفات الجاحظ وابن المقفع لا سيما كليلة ودمنة . ومقامات البديع وترسلات الخوارزمي وابن العميد وما انشأه مقلدوهم الى هذا اليوم

ومن الكتب الفصيحة نوع يجب ان نخصه بالذكر وهو ما يسمى (المطبوعات) او (النشريات) من صحف ومجلات : فان تلاوتها وادمان النظر فيها يقوي ملكة الكتابة الفصحى وفهم الكلام الفصيح . ويحدث في النفس مقدرة على تحريه ومحاكاته . وهذه المطبوعات من صحف ومجلات أقرب تناولاً من سائر الكتب الاخرى في تحصيل ملكة الكتابة الفصحى وذلك لسهولة الحصول عليها . وكثرة هوي الايدي اليها . ولان موضوعاتها تشرح الاحوال الحاضرة التي تتعلق بالقراء مباشرة فهي من أجل ذلك تلذ مطالعتها لهم متعلق عباراتها في اذهانهم . ويصادفونها على أسلات اقلامهم كلما حاولوا كتابة او انشاء .

ونريد بهذه المطبوعات ما يُكتب منها بلغة صحيحة فصيحة كما اشترطنا ذلك في الكتب مذ مثّلنا لها بالقرآن ونهج البلاغة . والا فان من المطبوعات ما هو مفسد للغة . هادم لبنيانها . مشوّه لمحاسنها

٣ — الطريقة الثالثة مما يساعد الجمهور على كتابة اللغة الفصحى هي ان يسمعوا الكلام الفصيح من أفواه الفصحاء فيشهدوا الخطب والمحاضرات في المعاهد والاندية والمحافل ويصغوا اليها ، ويتدبروا معانيها فيولّد ذلك في نفوسهم ملكة الكلام الفصيح . وفهم الكلام الفصيح . والمقدرة على كتابة الكلام الفصيح لكن لا بد من مراعاة الشرط السابق اعني ان تكون الخطب والمحاضرات فصيحة الاسلوب . صحيحة العبارة . والا التوى القصد وساءت العاقبة

وكما قلت ان الصحف والمجلات أشد تأثيراً في تقوية ملكة الكتابة من سائر الكتب الفصيحة اقول ايضاً ان الاصغاء الى تمثيل الروايات على مراسح التمثيل اشد تأثيراً في تكوين ملكة الفصاحة من سائر الخطب والمحاضرات وذلك لان نفوس المستمعين هم ينظرون الى مراسح التمثيل تكون على أتم الانتباه والاصغاء لفهم وقائع

الرواية واستقصاء حوادثها . وحوادث الروايات تشبه الحوادث التي تقع للمستمعين في مسارب حياتهم . ومضطرب اشغالهم ومن ثم يشتد اصغاؤهم فيشتد فهمهم فيشتد تأثرهم فتشتد ملكتهم . ومثل إصغاء العامة الى تمثيل الروايات في تصحيح ملكاتهم اللغوية إصغاؤهم الى وقائع قصة عنترة واشباهها مما فيه جاذب لهم الى الاصغاء والانتباه : فان هذا مفيد جداً في نشر ملكة الكتابة الفصحى . وعندي ان قصة عنترة اذا لخصت وهذبت وطبعت ونشرت وكانت متضمنة للرسوم والتصاوير . كانت من خير ما يفيد الاحداث لغة عربية ، واخلاقاً عربية . وتاريخاً عربياً . بل ربما فضلت الروايات الاوربية التي انما تصف لنا التاريخ الأوربي والاخلاق الاوربية

هذه هي الطرائق الاولى الناجعة في تقوية ملكة اللغة الفصحى في نفوس ناشئتنا فهماً وكتابة : (١) تعلم مبادي اللغة العربية (٢) مطالعة الكتب والصحف الفصيحة (٣) سماع الخطب والمحاضرات الفصيحة

وقد عملنا معشر السوريين بهذه الطرائق منذ نحو قرن اي منذ أسست في بلادنا المدارس الابتدائية على الطريقة الحديثة وانتشرت الكتب والمجلات والصحف وأنشئت محافل الخطابة واندية المحاضرات ودور التمثيل والروايات فاصبح كثيرون من العامة بل الخاصة في مدننا قادرين على الكتابة الفصيحة وتمييز الكلام الفصيح من غيره . كل منهم بحسب درجة ممارسته للطرائق المذكورة واستفادته منها

أما أن هذه الطرائق تركت أثراً في ملكاتنا فظاهر من المقارنة بيننا اليوم وبيننا منذ ستين او سبعين سنة : فان كثيرين من العامة اليوم يكتبون أحسن مما كان يكتب كثيرون من الخاصة في ذلك الوقت .

ولو شئت لعرضت امثالين من الكتابتين يظهر بهما الفرق جلياً ويظهر الفرق ايضاً اذا قارنا بين البلاد التي انتشرت فيها المدارس الابتدائية والمطبوعات والاندية كمصر مثلاً وبين البلاد التي لم ينتشر فيها شيء من ذلك كمراكش : فان اهلها المحرومين من هذه الوسائط ما زالوا محرومين من ملكة الكتابة الفصيحة . اللهم الا افراداً لا يصح ان يذكروا لقلتهم

*

(٣)

فرغنا من الكلام على نشر اللغة الفصحى بتحصيل الكتابة الفصحى فننتقل الآن الى المسألة الثانية وهي نشر اللغة الفصحى من حيث تحصيل ملكة النطق والمحاورة بها من دون غلط . وهو الامر الذي قلنا إن (رئاسة المعارف) ربما كانت تقصده في سؤالها واقتراحها على المجمع العلمي :

ان نشر ملكة التكلم باللغة الفصحى امر عسير بالنسبة الى نشر ملكة الكتابة بها نشر ملكة الكتابة الفصيحة تنال بالوسائط الثلاث المذكورة . اما ملكة التكلم باللغة الفصحى فلا بد فيها من مراعاة هذه الوسائط ومراعاة واسطة اخرى في الكل في الكل بل هي التي من دونها لا يمكن أبداً تحصيل ملكة التكلم باللغة الفصحى

وهذه الواسطة او الطريقة هي « ادمان التكلم والمحاورة باللغة الفصحى » والادمان المذكور انما ينبغي ان يؤخذ به الناشيء من ابنائنا منذ الصغر أما اذا كلفه أو أخذ به بعد الكبر فانه قلما يتيسر له ذلك باطّراد .

ونحن اليوم كباراً وصغاراً فاقدون لملكة التكلم باللغة الفصحى . فاذا اردنا الحصول عليها كان علينا ان نبتديء من صغارنا فنعوّدهم التكلم بها والتمرّن عليها ونتكلّفها نحن أيضاً اثناء محاورتهم

ولا يخفى ان الذين يحاورون الناشيء هم (١) أهله وخدّامه في البيت (٢) أترابه والعامة الذين يتكلمون معه خارج البيت « ٣ » رفاقه ومعلّموه في المدرسة التي يغادرها غالباً وهو ابن عشرين سنة

هذه المجالات الثلاث هي المعامل والفابريكات التي تتكون بها ملكة التكلم باللغة الفصحى

وأما المعملان الاولان (البيت) و (الشارع) فلا يمكن الاستفادة منهما ولا التعويل عليهما لان محاوري الناشيء فيهما هم الأهل والخدم والاتراب والعامة . وهؤلاء عاجزون عن التكلم باللغة الفصحى . فاقدون لملكتها . وفاقد الشيء لا يعطيه فلم يبق الا (الفابريكة الثالثة) اعني المدرسة . ومحاورو التلميذ فيها من رفاق ومعلّمين وان كانوا فاقدي ملكة اللغة الفصحى مثله لكنهم يكونون عوناً له على تحصيلها

مذ يوطّنون نفوسهم جميعًا على التكلم بها وتكلّف معاملتها

لا جرم ان هذا الوسط (وسط المدرسة) هو أقرب واسطة لنشر التكلم باللغة الفصحى بين ابنائنا ثم بين جمهور امتنا بالتدريج لكن يعترض ذلك صعوبتان :

(الصعوبة الاولى) ان لا يكون في المدرسة من يقدر على التكلم باللغة الفصحى سوى معلّم العربية وربما كان هذا أحيانًا ضعيف الارادة شديد احتياج يحجم عن محاورة تلامذته بالفصحى خشية أن يتلعثم بها فيهزأوا به

(الصعوبة الثانية) اختلافنا في تعيين القدر اللازم من اللغة الفصحى الذي يجب أن يحاور المعلمون به تلامذتهم ويكلّفونهم تحدّيه والنسج على منواله

للّغة الفصحى شعَب وفروع متعددة : كلمات لغوية : منها الغريب ومنها غير الغريب . كلمات معرّبة . كلمات مولدة . اساليب في النطق واللهجات مختلفة . قواعد نحو تطالب بمراعاة علامات الاعراب وتركيب الجمل . قواعد صرفية تطالب بمراعاة ابواب الصرف ووجوه العمل . وصيَغ الامثلة . قواعد علوم البلاغة . من معاني وبيان وبديع . قواعد علم التجويد التي تطالبنا بمراعاة مخارج الحروف . فما هو القدر اللازم من هذا كله فيتكلّفه المعلمون ويراعونه اثناء محاورتهم لتلامذتهم ؟ ؟

لا جرم اننا اذا عيّنّا المقدار وحدّدنا الدائرة التي يجول فيها المعلمون في المحاورة تلاشت هذه الصعوبة والصعوبة التي قبلها وسهل الامر على المعلمين واصبحت الثمرة على طرف الثمام

والحق ان الاساس الذي يقوم عليه أمر تكميل باللغة الفصحى شيئان لا غير :

١ — استعمال الكلمات العربية الفصيحة وترك الكلمات العامية المبتذلة

٢ — الحاق علامات الاعراب في آخر الكلمات وفقًا لقواعد علم النحو . فاذا قال لي قائل باللغة العامية مثلاً : (هلق إجا سعيد . شو بدّك منو . بتريد تشوفو حتى عيطلك الو) كان علينا في تصحيح عبارته ان نراعي امرين (١) استبدال كلمات فصيحة بكلماته العامية فنقول : (الآن جاء سعيد . ماذا تريد منه تريد أن تنظره حتى أناديه لك)

(٢) الحاق علامات الاعراب النحوية بآخر الكلمات المذكورة فنقول (الآن

جاء سعيد . ماذا تريد منه . تريد لنظرة لأنادية لك) فاصلاح اللغة العامية يكون بهذين الطريقين (طريق اللغة وطريق النحو) وأرى ان الاصلاح بالطريقين معاً متعسر أو هو لعمري غير ممكن : لانه مقاومة للطبيعة او هو محاولة شيء فطرت طباع البشر على ضده .

وبيان ذلك ان كل لغة فصيحة من لغات البشر لها بجانبها لغة متولدة عنها هي اللغة العامية او اللغة الدارجة . وهذه اللغة الدارجة هي في الحقيقة ابنة اللغة الفصحى بل زعم قوم ان العامية اختزال للفصحى . وطريقة اختصار في تعابيرها . وعدول الى ما هو الانسب والاصلح من احوالها

فلا يصح اذن التشاؤم بالعامية الى حدّ محاربتها أو ملاشاتها وإماتتها . وكل ما يجب ان نعمله هو اصلاحها وتهذيب حواشيها . وهذا الاصلاح بالنسبة الى لغتنا العربيه انما يكون بالطريقة اللغوية لا النحوية اي بتنقية الكلمات المبتذلة . والتعابير الرذلة . ووضع الكلمات الفصيحة مكانها . ففي العبارة العامية السابقه نضع (الآن) موضع (هلّق) و(جاء) موضع (اجا) و (ماذا) موضع (شو) (وتريد) موضع (بدّك) وهلم جرا

(٣٠)

وهذا القدر من اصلاح لغتنا العامية أراه كافياً لنا . شافياً من داء عجمتنا . اما الطريق الثاني في اصلاحها اعني مراعاة القواعد النحوية . وإلحاق علامات الاعراب بأواخر الكلمات فهو امر متعذر لان الحاق حركات الاعراب في الكلام متوقف على صناعة النحو التي لم يعد ممكناً اكتسابها بالسليقة او بالتلقين كما كان شأن العرب الاولين مع اطفالهم بل لا بد من تعلّمها والتمرّن على تطبيق قواعدها كما هو شأن سائر الصناعات البشرية . وهو ما حققه العلامة ابن خلدون في مقدمته . والذي يمكنه ان يتعلم صناعة النحو من ابناء امتنا العربية واحد في الالفين أو في الثلاثة آلاف . وان شئت قلت اكثر من ذلك وهؤلاء القلائل الذين يتعلمون صناعة النحو اذا أرادوا مراعاة قواعدها والحاق علامات الاعراب في أواخر الكلمات أثناء محاوراتهم عدّ كلامهم في اعتبار الناس الذين يجهلون صناعة النحو تشدّقاً يبعث على الضحك والسخرية

وقد نزل بلدنا (طرابلس الشام) منذ سنين عالم من علماء الترك يتكلم العربية الفصحى وكان في نيته السكنى في طرابلس . فكان اذا اراد شراء شيء من الاسواق كلم الباعة بالعربية الفصحى وهو معذور : لأنه لا يعرف سواها : فكان يسألهم (بكم رطل الباذنجان) معرباً الكلمات فكانوا يضحكون منه فيظن هو انه اخطأ الصواب فيعيد الجملة بأشد مراعاة لقواعد النحو . مادّاً صوته بالحركات والسكنات . فيزدادون ضحكاً منه واستهزاء به وكان كلما ازداد في تطبيق القواعد ازدادوا هم من الضحك ويزداد هو من الغيظ والحنق . وفي آخر الامر ترك طرابلس ورجع الى بلاده محنقاً مغضباً

ويروى ان استاذاً من علماء الشام كان يتقعّر في الكلام ويراعي قواعد النحو فيه فأعلن انه يريد ان يتزوج امرأة متعلّمة فاضلة فظفر بها . لكنها اشترطت عليه ان لا يكلمها باللغة الفصحى المزعجة فرضي . وفي ليلة الزفاف قدم لها تفاحة فرغبت اليه ان يقشّرها ويأخذ نصفها ويعطيها النصف الآخر فقشّرها وقسمها ثلاثة اثلاث وغفل عن الشرط فقال لها متشدّقاً بحكم عادته (هذا الثلث لي وهذا الثلث لوالدتي وهذا الثلث لك) فنهضت صارخة مستغيثة مستجيرة من قبح ما سمعت واحتجت على مخالفة الشرط

على ان في مراعاة قواعد النحو والحاق علامات الاعراب بالجُمَل التي تتألف منها أحاديثنا ومحاوراتنا تفريطاً في الوقت . وتضييعاً له : إذ ان الحديث الذي يُحكى عادة في دقيقة واحدة يضطر المعرب الذي يراعي القواعد ان يحكيه باكثر من ذلك . فانت ترى ان في مراعاة حركات الاعراب تفريطاً في الوقت واضاعة له وفي عدم مراعاتها توفيراً للوقت وحرصاً عليه ونحن وان كنا نحب ابن جني ونفطويه ونحرص على تنفيذ وصاياهم في مراعاة قواعد النحو لكنا نحب انفسنا اكثر . ونحرص على أعمارنا اكثر . على ان عرب الجاهلية انفسهم لا أظنهم كانوا يتكلمون بلغة واحدة معربة بالحركات والسكنات في دار ندوتهم . وسوق عكاظهم . كما يتكلمون بها نفسها في خيامهم . مناهلهم . ومعاطن ابلهم . وربما جاز لنا ان نستدل على ان لهم لغتين (لغة فصحى ولغة دارجة) وينهى النبي (ص) عن التشدّق والتقعّر في الكلام . . لا يقول هذا لو لم يكن للعرب في ذلك العهد اسلوبان للخطاب : اسلوب

تكلّف وتعمّق . واسلوب عفوٌ سهلٌ لا تكلّف فيه ولا تشدّق . وماذا عساه يكون اسلوب التكلف . لتشدق المنهي عنه سوى الذي يمطّ به المتكلم صوته . ويحرّك شفاهه بحركات الاعراب

وسواء قلنا ان العرب القدماء كان لهم لغتان او لغة واحدة يقدرون على مراعاة علامات الاعراب فيها — فاننا نحن اليوم ليس ميسوراً ذلك لنا في محاورتنا العامة فلنكتفِ اذاً (بالاصلاح اللغوي أو الترميم اللغوي) وذلك بوضع كلمات فصيحة مألوفة مكان الكلمات العامية المبتذلة . فنستلّ حجراً كما يفعل مرمّم البناء المتهدّم . ضارباً بين صفحاً عن (الاصلاح النحوي) اي الحاق علامات الاعراب بآخر الكلمات . اللهم الا في خطبنا ومحاضراتنا وقصائدنا وأشعارنا وفي اندية العلمية والادبية . وفي كل ما نكتبه من الرسائل والمصنفات . والجرائد والمجلات . احتفاظاً بلغتنا الفصحى التي هي حياة مكتبتنا العلمية الموروثة عن الاسلاف .

وخلاصة ما نجيب به (رئاسة المعارف) على سؤالها عن أقرب الطرق لنشر التكلم باللغة الفصحى هو أن نتقدّم الى اساتذة المدارس باصلاح كلام التلامذة على (الطريقة اللغوية) فيكتفوا باستبدال الكلمات الفصيحة القريبة التناول بالكلمات العامية المبتذلة : فاذا سمعوا تلميذاً قال (بدّي) نبهوه الى (اريد) واذا قال (شو) ذكّروه (بماذا) أو (ايش) المنحوتة من اي شيء) فانها وردت في كلام الفصحاء : واذا قال (عَمَاشُوف) حسّنوا له ان يقول مكانها (تعالى انظر) وهلمّ جرّا مكتفين الآن بهذا القدر من الاصلاح . في الإبانة والإفصاح . لأنه هو الممكن الميسور . الداخل تحت المقدور

(اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع)

المغربي